الإصدار الخامس - العدد واحد وخمسون
تاريخ الإصدار: 2 – كانون الثاني – 2023م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

"البحر وإستراتيجية الدلالة في طريقي إلى الحرية"

إعداد الباحثة:

إيمان عجيان السناني

باحثة دكتوراه

الإصدار الخامس - العدد واحد وخمسون
تاريخ الإصدار: 2 – كانون الثاني – 2023م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

المقدمة:

لئن كان الإنسان كائنا بريا وتنتهي حياته البيولوجية بالغرق، فإن البحر عنصر مهم من العناصر التي تبرّر وجوده وتؤمن حياته سواء بالرزق الغذائي أو بالتوازن البيئي فضلا عن ضرورات أخرى كثيرة مثل السفر وتذليل المسافات وتحقيق التضامنات والتعايش والاندماج في العالم. لكل هذه الارتباطات الضرورية والحياتية بالبحر بدا الإنسان كما لو أنه يعيش مفارقة في علاقته بالبحر. ففي السياق الطبيعي يكون البحر جالبا للموت وفي السياق الأدبي يكون نسغا حيويا للمادة الأدبية ولثراء النصوص وجماليتها. لهذه الأسباب يحتل البحر مكانة كبرى في المجال الرمزي داخل السياقات السيميائية لاسيما في الأدب نثرا وشعرا.

وهذه السياقات متعددة حسب نمطية الشعوب وخصوصياتها فقد غلب عند الشعراء العرب القدامى خاصة سياق الكرم باعتباره رمزا للخيرات التي يجود بها على الإنسان وهو ما خلق عملية انزياح دلالي لدى كبار الشعراء فحوّلوا البحر بيانيا من رمزية الكرم والجود في ذاته إلى صورة منتزعة منه مستعارة لكرم الملوك والممدوحين عموما، بل استعاروا هذه السمة الرمزية للبحر مقابل سمة البخل التي نعتوا بها خصومهم على تخومهم من أهل مرو وخرسان كما ورد في بخلاء أبي عثمان.

وإذا كانت هذه هي السمة الغالبة عند العرب فقد غلبت لدى الرومنسيين في الغرب سمة الجمال الطبيعي والصفاء والتطهر مما لحق الإنسان من لوثات فكرية وعاطفية ومن سيئات لحقته من حياته المادية، في حين نجد البحر لدى شعوب أخرى كالتي تعيش في الجزر الآسيوية رمزا للإلهام والصفاء الروحي والاغتراف من منابع العرفان. وهكذا تنوعت دلالات البحر الرمزية وتنوعت بتعدد الشعوب واختلاف الحضارات والبيئات.

وإذا انتقلنا إلى السجلات الرمزية في النصوص السردية المعاصرة فإن سمة التنوع والتعدد الدلالي لكلمة "بحر" نجدها هي الغالبة على جل النصوص الروائية والسيرية خاصة وذلك بقطع النظر عن خصوصيات انتمائها الحضاري أو الجغرافي أو التاريخي، لأن غاية السارد غالبا هي الإبداع وجودة الفن وتوسيع مجالاته الرمزية والدلالية. تلك هي خاصية الصناعة السردية التي لا تقوم على نسج شبكة سيميائية كاملة لمجموع المصطلحات المفاتيح في تلك النصوص. وهذا ما وقفنا عليه في السيرة الفكرية لحمادي صمود الموسومة بـ"طريقي إلى الحرية، حيث وردة كلمة "بحر" ضمن شبكة متعددة الأبعاد لسجالات رمزية وضعها مهندس سيرة "طريقي إلى الحرية" الفكرية.

الإصدار الخامس - العدد واحد وخمسون
تاريخ الإصدار: 2 – كانون الثاني – 2023م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

يجب الإشارة منذ البداية أن ما نهدف إليه هنا هو دراسة سيميائية على طريقة السيميائية الدلالية عند رولان بارت[1] وهي التي تهتم بدراسة أنظمة الدلائل، أي النظام السردي الدلالي الذي يضعه المبدع في خطته لإنتاج الدلالة انطلاقا من شبكة الرموز كما هو حال البحر في سيرة حمادي صمود. وهذا يعني أننا في دراستنا لرمزية البحر في سيرته الفكرية نكون بإزاء "السيميوتيقا النصية"، حيث الاهتمام بالنظام العلامي الذي وضعه الكاتب والذي يعكس قدرته على الإبداع.

ضمن هذا التصور للسيميائية نلحظ منذ البداية أن كلمة "بحر" اعتمدها صمود مصطلحا رئيسا في سيرته فهي من المصطلحات المفتاحية التي سيبني على أساسها نظامه الدلالي في الكتاب كله انطلاقا من العنوان وانتهاء بكل التفاصيل في المتن حيث تدور الأحداث حول البحر وتتعامد معه. فكلمة "بحر" في سيرته هي بمثابة الوتد الذي عليه قام نسيج النص. وهي أيضا بمثابة الآلة المنتِجة لسجل معجمي بحري كامل. فالسيرة حافلة بـ"المعاني الحافة" أو "المعاني المصاحبة" للبحر (connotation)[2] التي اجتمعت لتشكل معا هوية نصية، هي هوية البحر التي استبدت بالنص وكادت أن تلغي بقية الهويات الأخرى لاسيما في الفصول الأولى من الكتاب. فمن البحر نجد تسميات تونسية كثيرة عن الصيد والصيادين وآلاتهم وأسماء الرياح وأسماء هيجان البحر وأسماء الأسماك، وغير ذلك كثير جدا مثل أسماء الرياح كالبراني والشرش والشلوق والسماوي أو أسماء الصيادين مثل الرايس والماكينجي أو أسماء السفن وتجهيزاتها مثل النسري والدفة والطنارة أو أسماء الأسماك مثل البوري والقاروس والنزلي وغير ذلك مما لا عد له. وهي مجموع من المعاني الحافة بالبحر والمتولدة عنه باعتباره محور الدلالة ومركزها في الكتاب.

وهذا يمكن أن يُستدل عليه من خلال الكثافة العالية جدا للعبارة على كامل المسار النصي للسيرة. وهذه الكثافة العالية، من الناحية النظرية، ممكن إثباتها من خلال تطبيقة الكترونية أصبحت تدرّس في مختبرات النقد الأدبي بالجامعات الغربية وتعرف بـ "الأسلوبية الإحصائية"(stylistique statistique) أو الأسلوبية المطبقة على الحاسوبية" (stylistique appliqué à l'informatique) [3] لنتبين من خلال ذلك كيف أنَّ عبارة "البحر" ظلّت محور كل فصول السيرة وظلت هي قطب الرحى التي حولها تدور الأحداث كلها

[1] رولان بارت، مبادئ في علم الأدلة، تعريب محمد البكري،(اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، 1987م)، ص 57.

[2] (connotation) مصطلح في علم الدلالة وظفه لأول مرة في مجال النقد الأدبي رولان بارت Roland Barthes في كتابه س/ ز (s/z) . والمصطلح يعني مجموعة "المعاني الحافة" أو "المصاحبة" الناتجة عن استخدام مادة لغوية معينة والتي تضاف إلى المعنى المفاهيمي والأساسي الذي يشكل محور الدلالة ومركزها. والترجمة لتوفيق بكار من كتابه "قصصيات عربية"، ج1، دار الجنوب للنشر، تونس، 2020.

[3] للتعمق / ينظر: فيرونيك بارونتوي: تحليل النصوص الأدبية بالاستعانة بالحاسوب، نسخة الكترونية.
https://cursus.ebsi.umontreal.ca/vol4no1/parenteau.htm

الإصدار الخامس - العدد واحد وخمسون
تاريخ الإصدار: 2 – كانون الثاني – 2023م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

حتى ليبدو لنا أن الكلمة أولى بحضورها في العنوان من عبارة "حرية" لولا ما أسعفتنا به القراءة الأولية للعنوان مستعينين بنظرية جيرار جينات "العتبات" (les seuils) حيث وجدنا هذه العلاقة المتينة بين الحرية والبحر مثبتة في المتن النصي شاهدة على علاقة وثيقة بين العبارتين في العنوان. فالبحر هو رمز للحرية كما سنرى والعلاقة بينهما من شاكلة مجاز السببية إذ البحر يمثل التعبير الرمزي الأكبر للحرية في سيرة صمود الفكرية. وعن هذه الرمزية المركزية تتفرع بقية الدلالات الثانوية الأخرى لتكون كما يلي:

1 . البحر رمز للحرية:

حين ننظر في العنوان ثم ننتقل لمتابعة صورة البحر في متن النص ندرك بوضوح مقصد الكاتب في جعل البحر هو بمثابة المحرك الحيوي للحرية التي جعلها معيارا لهوية نصه السيري. ذلك أن أهم المحطات والأحداث الركنية كلها تدور حول البحر. وأبرز تلك الأحداث حدثا مهما يكرره صمود كل يوم بمساعدة أمه وهو صعوده الشاق إلى أعلى بناية بدون درج ولا سلم، لا لشيء إلا لتكشف له أمه مشهد البحر وفسحته وعظمته وانفتاحه المطلق على الأفق الطلق بعبارة ابن زيدون. مشقة كبرى تحمّله إياها أمه كل يوم حيث تخرجه كل صباح من "حفرة" البيت وتصعد به إلى سطح تربيعة الجيران عبر المرحاض [4] ومنه إلى صعود أول للجدار. لقد كان الصبي "يعرف أن استنهاض أمه له حلقة أولى من طقس تعود القيام به منذ أصبح قادرا على تسلق الجدران الحجرية غير المجصصة الفاصلة بين وسط الدار وتربيعة الجيران المرتفعة، ودون سطح التربيعة مراحل لابد من قطعها: أولاها الدخول إلى المرحاض المكون من حائط موازٍ لحائط آخر من حيطان الأساس أعلى منه ثم ينعرج في اتجاهه تاركا مدخلا منحسرا إلى فضاء غير مسقوف (...) تقف أمه وهي متجهة صوب البحر، ويقف هو إلى جانبها مرتجفا من البرد والخوف ومن أشياء لم يكن يدركها"[5].

ولكن صمود الكاتب أدرك رمزية ذلك فضمنها نصه وجعل علاقة تراسل دلالي بين عنوان السيرة وهذا الحدث الجلل ليوحي لنا بأن أمه أرضعته منذ الطفولة طعم الحرية كما أرضعته طعم الحياة. فالحرية التي تكِدّ أمه وتجدُّ لتغرسها فيه رمزا وشعارا محفوفة بالجهد والتعب والتعود على تحمل الصعاب. هكذا كانت أمه تتصور البحر رمزا للحرية وهكذا كانت تريد أن يفتح ابنها عينيه كل صباح على مشهده وصورته. وهذا ما فهمه الكاتب كبيرا بعد أن عجز عن إدراك مقاصد أمه صغيرا. فالكاتب تشبع بقيم الشموخ والأنفة منذ صباه وتفتحت عيناه على انفتاح الفضاءات وامتداها وعلى القمم وارتفاعاتها.

[4] المرحاض هو الحمّام ويسمى عند التونسيين أيضا بيت الراحة.
[5] طريقي إلى الحرية، ص 14.

الإصدار الخامس - العدد واحد وخمسون
تاريخ الإصدار: 2 – كانون الثاني – 2023م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

2 . البحر ذاكرة الطفولة:

من خلال جدلية ثقافة الكاتب وواقعه التاريخي الذي عاش فيه طفلا يبلغ السرد ذروته حين يصل إلى الأجواء البحرية في مدينة قليبية وما جاورها من موانئ وما تحمله تفاصيلها التي تلتصق بالبحر وتندمج في كل جزئياتها حتى لكأن قليبية هي البحر والبحر هو قليبية منه تستمد شرايين الحياة ومبررات الوجود ومنها ومن زفرات أهلها وأحلامهم يستمد البحر نبضاته كما لو كانت قلبه.

وهكذا أنشأ صمود مدينته نصيا وظل ينتقي من الخبر/الواقع خطابه السردي وشكّل من الأماكن حكايته وأخرجها إلى عالم قصته وأنشأها إنشاء وكان أجمل تلك الأماكن على الإطلاق هو البحر ومنه وبه تتشكل جمالية النص العاكسة لجمال الواقع حول البحر تشكلت في النص منازل الطفولة جغرافيًا، ووصفت كل مكوناته الداخلية والخارجية. هكذا كانت هيئة الشواطئ وأسماكها المتنوعة، وكان موضع "المراح" ذو المقاهي التي تمتد على طريق شاطئ البحر ومجمع السكان المطل على البحر ذو الأقواز والرمال الكثيرة البيضاء الناصعة حيث تنتهي جهة القبلة إلى فم البوغاز وهو ميناء مكون من ذراع واحدة تنتهي بمنارة.

3 . البحر والبعد الرومنسي:

والبحر في "طريقي إلى الحرية" هو رمز للجمال والصفاء الروحي، بل إنه ليتجلى في متن النص بمثابة تعميد الأطفال في بداية عهدهم بالوجود وتلقي المعرفة. وحوض التعميد هو الكتّاب الواقع بين صخرتين عظيمتين على شاطئ البحر: "صخرتان عظيمتان تزن الواحدة منهما أطنانا.. فإذا جلس الأطفال في الصباح كانت أمامهم " الدويرة" وهي بحر محشور بين مصطبة صخرية قليلة الانكسار.. كان اللقاء بالمؤدب كل صباح لقاء بهذا المنظر الساحر الجميل منظر البحر يمتد من أسفل شرفة الأرض التي نجلس فوقها إلى منتهى البصر.."[6]. فكأن البحر يعكس صفاءه وجماله في نفوسهم الطاهرة فيتلقون المعرفة الصافية النقية بكل تلقائية وحب. وهو ما حظي به صمود وهو طفل في ذلك الكتّاب على شاطئ البحر حيث الصخرة العظيمة التي تضللهم وتحجبهم عن الشمس من جهة الغرب صباحا ومن جهة الشرق مساء دون أن تحجب عنهم جمال البحر في لونه الأخاذ وسكونه العميق وغضبه المثير أيضا. في هذا الجو . كما يقول صمود . "كنّا نقرأ القرآن قُبالة هذا المشهد الأخّاذ بصفائه وانكشاف ما يجري في باطنه لعين الرائي مجرّدة"، و"ارتبط حفظ القرآن

[6] طريقي إلى الحرية، ص 72.

الإصدار الخامس - العدد واحد وخمسون
تاريخ الإصدار: 2 – كانون الثاني – 2023م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

عندنا بصفاء الماء ولمعان الأسماك تتمرّغ زهْوًا على جنبات المصاطب الصّخريّة أو المتوثبة خارج الماء إن هي شعرت بخطر داهم"[7].

وعلى وقع هذا الفضاء المنفتح تلقّى صمود الطفل خطواته المعرفية الأولى وعلى جمال البحر وصفائه حفظ القرآن فبقيت في النفس . كما يقول . صلة عميقة بين القرآن وصفاء البحر ولمعانه.

وفي جانب رومنسي آخر نجد ما يمثله البحر من مصدر للخيال الخصب وتوهجه لدى الأطفال. والخيال في المرجعية الرومنسية هو أساس اكتشاف الحقيقة الوجدانية لهذا الوجود، وهو ما حول القوة التخييلية إلى حالة من الكشف عن أغوار الذات ومجاهلها. ولم يقف دور الخيال هذا عند الرومنسيين بل سيكون له الدور نفسه أو أكثر لدى المدارس الأدبية التي سترث الاتجاه الرومانسي، كالرمزية والسيريالية خاصة. ومن الجلي أن كل هذه الأبعاد لم تكن غائبة عن ذهن صمود وهو يحاول أن يأخذ السيرة ذات الجينة الواقعية إلى الرمزية. فالحديث عن ذاكرة الطفولة عنده فيه حرص شديد على البراءة والفطرة وتأكيد على دور البحر في إخصاب تلك الفطرة الأولى وتزويدها بقوى تخييلية بدأت تعيد تجميع عناصر الوجود وإعادة بنائها في الذهن من أجل بناء شبكة سيميائية تصعد من مستوى الكلام العادي إلى مستوى الكتابة الأدبية، أو بتعبير رولان بارت تصعد فوق الدرجة الصفر من الكتابة[8] ولا يخفى الجهد الذي بذله صمود في تحقيق سمو كتابته فوق الدرجة الصفر من الكتابة قدر المستطاع. فهو أستاذ مدرّس في النقد الأدبي وعليم بكل هذه التفاصيل واختار لتحقيق ذلك السمو أن ينحو بالسيرة منحى رمزيا يدخل ثراء على الأجواء الواقعية ويعطي للأدبية زخما وارتفاعا.

هكذا يتوقف صمود عند الطفولة وذاكرتها وهي تستقبل العالم على شاطئ البحر فتتسع طاقة الخيال وتكبر وتتشكل في جمال وسحر. إذ كانت قدرتهم "من فرط الصفاء على تمييز الحركة في أحشائه وارتباط بعض الآيات والسور بدخول مفاجئ لرفرف من السمك أو

---

[7] طريقي إلى الحرية، ص 73.

[8] عنوان كتاب لرولان بارت يحاول فيه تقديم معيار للأدبية وذلك بوضع ميزان أطلق عليه الدرجة الصفر من الكلام أو الكتابة، والأدب يبدأ انطلاقا من الصعود فوق الدرجة الصفر. وكلما ارتفعت الكتابة فوق الدرجة الصفر ارتفعت الأدبية. وفي أسفل السلم يضع رولان بارط الرمز المجازي والأسلوبي والبلاغي الذي لا يتجاوز تحويل الكلمات من معانيها المباشرة المعجمية إلى ما يسميه المعاني الثواني. وأما ارتفاعها فوق ذلك فنجده في المدرسة الرومنسية التي فتحت المجال إلى الخيال الخفاق المبدع الذي يحلق بالأدب في عوالم أسمى، وأما سمو الأدبية فهي تكمن في تحويل الأدب إلى الغموض والرمزي الأسطوري حيث تسيطر المدرسة الرمزية وهذا مثاله في الأدب العربي شعر أودنيس مثلا. وقمة القمة فوق الدرجة الصفر من الكتابة أو الرسم أو غير ذلك من التعابير الأدبية والفنية فتكمن في الدراسة السوريالية. ينظر: رولان بارت، الدرجة الصفر من الكتابة، تعريب محمد نديم خفشة، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 2002.

الإصدار الخامس - العدد واحد وخمسون
تاريخ الإصدار: 2 – كانون الثاني – 2023م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

صورة صراع بين حوت مهاجم و حوت ينجو بنفسه، بقيت عن كل ذلك آثار باقية لعل أهمها الإفلات من سطوة الوعد والوعيد وارتباط فكرة الخالق بالصفاء والنور والدهشة التي كنا نعيشها أمام عظمه المشهد وجلاله." [9]

ارتبطت في ذهن الصبي علاقة البحر بالوجود والمعرفة والتعليم حتى إذا ما انتهى عصر الصفاء والجمال وتحول إلى المدرسة بأسوارها المغلقة وبقاعاتها الموصدة، سئمت نفسه العلم وأهله وجدّ هاربا كل صباح زاهدا في التعليم حتى انكشف أمره وصادته أمه جميلة لتذيقه أشد العقوبة ضربا وتنكيلا. لقد كان البحر وانفتاحه وصفاؤه وجماله هو السبب في كراهية الصبي للمدرسة وفضائها البعيد عن البحر، قبل أن يتدارك أمره ويتوب بسبب حادثة "طريحة جميلة" الشهيرة. إنها قصة عشق بين البحر وصمود/الصبي أتقن صمود/الكاتب نسج خيوطها نصا.

4 . البحر هو الشقاء والرزق:

يظهر من خلال نص صمود أن المجتمع في قليبية مجتمع بحري بامتياز، ومن البحر فقط لا من غيره يكسبون القوت. فالبحر كما هو في الاصطلاح الشعري القديم مستودع الخيرات. يصف صمود تلك الخيرات بتعجب وهي تتجول تحت قدميه القصيرتين عندما كان طفلا يعبث بالماء. "وأما التعجب فمن كثرة الأسماك التي أراها وأنا أشق الماء، ومنها ما بلغ حجما تتساءل كيف يمكن أن يسبح في هذا الماء القليل الغور. كانت أسماك "البوري" بطول الذراع أو أكثر، وكان "القاروص" منتشرا بأحجام متفاوتة، والغريب أن مروري لم يكن يزعجها"[10] هكذا يتعايش الإنسان في هذه القرية الساحلية مع الأسماك ويندمجان معا ويتعايشان. قرية يقوم اقتصادها على صيد الأسماك لا غير في بحر مكتنز بالثروات.

ولكن تحصيل الرزق اقترن بالشقاء وظل مشروطا به، إذ لا رزق لأهل قليبية إلا بعد مشقة وعناء كبيرين. وهذا الشقاء ينعكس على حياة السكان. وصمود حاول أن يصور ذلك لنا ببراعة ما. وهو يدرك أنَّ تفاصيل المجتمع تبدأ من العائلات أولا، ثم من تصوير أوضاع الأفراد ثانيا. وينطلق في الحديث عن عائلته فيجد القارئ في نفسه من خلال ذلك أن كل عائلات قليبية هي عائلات بحرية بامتياز، وهي عائلات شقية بائسة ينطبق عليها القول قياسا على قول فيكتور هيغو "المعذبون في الأرض"، بل هم "المعذبون في البحر". يصف ديار أهل قليبية من خلال وصف دارهم الممتلئة بالأقارب الذين دمرهم البحر وأنهكهم، وعلى رأس هؤلاء أبوه الذي انكسرت ساقه في

[9] طريقي إلى الحرية، ص 73.
[10] طريقي إلى الحرية، ص 112.

الإصدار الخامس - العدد واحد وخمسون
تاريخ الإصدار: 2 – كانون الثاني – 2023م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

حادثة النسري وبقي حتى موته يعاني من عاهة مستديمة. هكذا نشأ صمود الطفل "في دار يسكنها أربعة من أبناء العمومة مع عمهم المتبقي على قيد الحياة مقعدا لم يبق منه البحر إلا شبحا داميا ملتصقا بالأرض.. بينما كان في شبابه وحتى إلى كهولته المتأخرة من ريّاس " الصنار"، المعدودين"[11].

عائلات حطمها البحر فإذا هو ذلك الوحش رمز الموت يتهدد الإنسان في كل حين، لكنه مصدر القوت أيضا فيأتي النص متوترا بين متناقضات: الشقاء والرزق.

يفضل صمود أثناء حديثه عن دلالة الشقاء البحري هذا أن تُشد نصوصه إلى أوتاد كأوتاد الصيادين. يضع خطة كتابته عن دلالة الشقاء والرزق للبحر بالحديث عن أمه والنساء عموما. وهو أمر غريب لأن الطبيعي أن يكون الحديث عن البحارة فقط وعن مصارعتهم لأهوال البحر من أجل كسب القوت، لكن الأمر مع صمود يبدأ بالحديث عن الأمهات فيكتب بتعاطف بالغ ويبرز أن دورهن في كسب القوت قبل الرجال، وأن تحملهن للمشاق أكثر منهم إذ "على الأمهات كان يقع وزر هذا العيش اليابس، وعليهن تقع أثقال الحياة وتناقضاتها فيتولد عندهن الزهد في كل شيء واليأس والاستسلام"[12] صورة موجزة عن خصوصية المرأة التونسية وهي صورة عميقة رغم الإيجاز في التعبير. فالمرأة هنا تتحمل أعباء حياة العائلة قبل الرجل. عود على بدء الكينونة البشرية حين كانت الأم في عصور ما قبل التاريخ وقبل نشأة الأسرة[13] تتحمل مسؤولية أطفالها عيشا وحماية. وكأن شدة الفقر والعوز هي ما تحمل الأمهات إلى تلك العوالم المترسبة في الوجدان البشري خوفا على أبنائهن من سوء المصير فيتشكل لديهن سلوك يتسم بالخوف واليأس والزهد في مباهج الحياة وزينتها. وهذا يتأكد في نص صمود حين ينتقل إلى الحديث عن أمه فيتوخى خطابا شفافا وصادقا إذ لا يرى أي حرج في ذكر مكابداتها وشقائها من أجل لقمة عيش صغارها ولذلك وجدناه يستعيد ذكريات والدته الحزينة تجاه البحر، وما يبثه من خوف في نفسها كما يصف تقززها من السمك بالرغم من أن مهنة زوجها بحار. وكأننا بصمود يتعاطف مع أمه بل يحس ما تحس لأن رائحة الأسماك لاسيما إذا كانت يوميا وبكثافة تصيب البشر بحالة من التقزز ولهذا السبب كانت أمه " تكره البحر ولا تأمن جانبه، تكره كل شيء فيه، فهي مثلا لا

[11] طريقي إلى الحرية، ص 14

[12] طريقي إلى الحرية، ص 90.

[13] كانت المرأة حسب بعض النظريات الفلسفية مثل الداروينية ومثل المادية التاريخية ترى أن في عصر ما قبل الأسرة كان دور حماية الأطفال وتغذيتهم تتحمله الأم ويتوقف دور الأب على الاتصال الجنسي فحسب. إلا أن تطور الحياة أدى إلى بداية الأسرة ودخول عهد الرجل المسيطر. للتعمق في تاريخ الأسرة وبداية ما يسمى بالهزيمة التاريخية للمرأة وبداية سطوة الرجل ينظر: البحوث التاريخية والبيولوجية التالية : لويس إتش مورغان: المجتمع القديم (Ancient Society)، مرغان، 1877. و فريدريك إنجلز: " أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة" (The Origin of the Family, Private Property and the State)، والذي نُشر عام 1884

الإصدار الخامس - العدد واحد وخمسون
تاريخ الإصدار: 2 – كانون الثاني – 2023م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

تشتهي السباحة أبدا، وتفضل أن تصب على لحمها أوقات الحرارة الشديدة الخانقة سطلا من ماء البئر الباردة العميقة على أن تكلف نفسها كبقية نساء الدار الذهاب في الليالي المقمرة للسباحة، وكانت تكره السمك كرها لم تُنقص منه عشرتها لزوجها البحار شيئا.. وكانت تكره كل رزق يأتي منه.. وتعتبر نفسها منكودة الحظ لزواجها من رجل يغذي سعيه الى رزقه هلعها ويجدده على مر الأيام"[14].

ولكن صمود بالرغم من أنه صدّر حديثه عن رمزية البؤس والشقاء بالنساء فإنه لم يقتصر على ذلك، بل نجده شمل فئة أخرى من هؤلاء المعذبين في البحر وهم البحارة والرياس، عمال البحر وصيادو السمك من الفقراء الذين أطلقوا عليهم في البلدة كنية "نواشني" لكثرة ربطهم للحبال.

خصص الجزء الأول من سيرته الموسوم بـ"موارد الصفاء " للصيادين فيبدأ بالبحر، والبدايات دائما تتسم بالأهمية وبوقعها في حياة الكاتب، ويرتب الأحداث على وقع حضور البحر وبسط سلطانه على النص مما يجعلنا نحن القراء الذين نجهل الفضاء الواقعي لمدينة قليبية نبنى لها عالما ذهنيا يكاد يكون خرافيا. وقد بنى ذلك النظام السردي في الفصل على أساس قصص ثلاث وهي:

أ – في الإخبار عن موت "قبة" و"جميل" غرقا

موت قبة ورفاقه قصة داخل القصة ثلة من أخيار الصيادين في قليبية استهواهم يوم مشرق فخرجوا للبحر بحثا عن رزقهم، توغلوا ونصبوا شباكهم وانتظروا، ثم فجأة أتت موجة لا يعرف سرها إلا الرايس قبة فصاح في بحارته أن يستعدوا للمغادرة، وبدأوا فعلا لكن الطبيعة باغتتهم وغدر بهم البحر. يتقن صمود ويتوسع في وصف صراعهم مع البحر، كان يصفهم مما ترسب في مخياله لأنه لم يكن معهم في البحر. كان الخيال أكثر مضاء من الواقع وقد بدا "غرق "قبة" و"جميل" الصفحة الأولى في سجل المآسي والأحزان التي لم ينسها مر الأيام، ذهبا من غير رجعة وبقي الجرح مفتوحا ينز من جديد لأول حادث(...) كذلك كان بعدهم "المنجي" و"بوستة" و"نور الدين" و" المقادف" و"سليم " و"داود" و"صلاح".. جرحا مفتوحا يؤلم أهلهم وبعض أصحابهم إلى يوم الناس هذا"[15].

وبالرغم من أن بعضهم لم يقدم لهم وصفا فإن أسلوبه وهو يتحدث عن بعضهم الآخر يقتر حزنا مما يؤكد أن ذاكرة الصبي تعج بالآلام منذ الصغر وأن البحر في "الوطن القبلي" (Cap Bon) (الصفة المعروفة في تونس عن محافظة نابل) ليس دائما مصدرا للخيرات وإنما هو أيضا مصدر للألم والمآسي وعلامة بارزة للموت الراصد المترصد المتربص في كل آن وحين.

[14] طريقي إلى الحرية، ص15.
[15] طريقي إلى الحرية 28.

الإصدار الخامس - العدد واحد وخمسون
تاريخ الإصدار: 2 – كانون الثاني – 2023م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

تولّت حادثة موت قبة ورفاقه في نص صمود ريادة الخطة الدلالية لأنها اكتست، كما وصفها، في المخيال الجمعي لأهل قليبية "إهاب الخرافة حتى لا نكاد نقف فيها على أصل واضح جلي وسرعان ما تحوّلت إلى أمثولة تجسم الخوف الأبدي الساكن أعماق الناس من البحر (...) لأن الدخول فيه مخاطرة والسعي فيه إلى الرزق في حوزة المحو والموت"[16].

ب – في الإخبار عن دهاء الرايس "فرج" وإيقاعه برياس في عقر دارهم

قصة تعكس علاقة التونسيين بالبحر وصراع الجهات حول النفوذ والاستحواذ على أكبر مساحة ممكنة منه. وبالنظر في جغرافية تونس نجد أن محافظة نابل المعروفة تونسيا بالوطن القبلي مجاورة لمحافظة سوسة المعروفة أيضا تونسيا بأهل الساحل أو السواحلية. وفي هذه القصة يصور صمود الصراع بين أهل قليبية وأهل الساحل على البحر من خلال تنافس الرايس فرج القليبي والرايس عمر الساحلي حتى أصبح التنافس بينهما محل تندر الجميع ولكل منهما رمز بطولة مع البحر إذ "الناس اليوم يسمون النيشان الأول نيشان فرج والنيشان الثاني نيشان عمر"[17] ومن المعروف أن أهل الساحل هم المتمسكون بالسلطة في زمن كتابة السيرة، لذلك يبالغ صمود في وصف إمكانيات أهل الساحل وملكيتهم لأكثر التجهيزات وسفن الصيد مقابل فقر أهل قليبية واعتمادهم على طرق تقليدية في الصيد وهذا لم يمنع من انتصار أحد الرياس على خصمه الساحلي واصطياده من السمك الأزرق أكثر مما صاد. وصمود هنا يطنب في امتداح الرايس فرج وبحارته ويعده مفخرة لقريته.

ومن الطبيعي أن تؤدي المنافسة إلى تطوير الإنتاج ومضاعفته لذلك كان دهاء الرايس فرج وانتصاره سببا في رفاهية أهل قليبية إذ "عمّت الفرحة أهل الدار. وكسب كل واحد من البحارة ما لم يكسبه في شهر من صيد السمك الأزرق، وعرفوا شيئا من الرفاهية في المأكل والملبس، واغتنمت النسوة الفرصة لاشتراء لباس الأعراس والأفراح"[18] وهكذا صنع صمود خطته الدلالية من خلال علاقة أهل قلبية من البحر. علاقة متوترة في انسجام وعلاقة بؤس وشقاء حينا، ملبسة ثوب الرفاهية أحيانا. نظام للدلالة قام على المراوحة بين المتناقضات فيه مدّ وجزر تماما كحركة أمواج البحر.

16 طريقي إلى الحرية، ص19.
17 طريقي إلى الحرية، ص 51.
18 المصدر نفسه، ص50.

الإصدار الخامس - العدد واحد وخمسون
تاريخ الإصدار: 2 – كانون الثاني – 2023م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

ج – في الإخبار عن حادثة انقلاب "النسري" قبالة الطنارة

قصة "رابحة" المهيمنة على الميناء برياسها الأشداء وبحارتها الأقوياء ولكن التحدي قائم إذ هناك من سيشتري مركبا حديثا لوضع حد لهيمنة رابحة. وتم اشتراء مركب بمحركات "الكتر بلار" لأول مرة في تاريخ قليبية وأطلقوا عليه اسم "النسري" واستقبله الأهالي باحتفالات صاخبة. لكن الأقدار شاءت أن يتعرض النسري لعاصفة هوجاء بعد أن جلب لأهل قليبية الخير لا من صيد السمك فقط بل من جلب السياح أيضا.

عاصفة هوجاء باغتتهم في رحلة سياحية إلى إحدى الجزر المجاورة وأدت إلى مواجهة أخرى كمثيلاتها بين البحارة والبحر كانت نتيجتها انقلاب النسري وإصابة أبيه بكسر وتشوهات ظلت معه لبقية عمره. عاصفة كان البحارة خلالها يكابدون "ويصيحون بأعلى صوتهم في من يصارعون الأمواج حتى لا يستسلموا، وحتى لا يتجهوا إلى بر جهة "القفازة" حيث يقوم هداب من الحجارة نخرتها عوامل التعرية وحولتها إلى ما يشبه السنان أو الآلات الحادة (...) فالاتجاه نحوها يعني الموت الشنيع لأن الأمواج إن قذفت بإنسان على الصخور حولته إلى هشيم"[19].

هذه قصص ثلاث هي بمثابة نماذج لعلاقة أهل قليبية مع البحر ومواجهتهم له نقلها لنا صمود من خلال ما ترسب في ذاكرته طفلا ومن خلال ما اكتسبه الناقد الأدبي من تقنيات التعلّم كهلا. ثم صاغها لنا نصا فنقل إلى أذهاننا عالما متخيَّلا وإن كان في الأصل عالما واقعيا. وما صورة المتخيل في أذهان قرائه إلا نتاج نظام للدلالة ارتآه على أساس مركزية البحر الرمزية.

6 . البحر أداة وصل وليس فصل

ليس البحر كما هو متعارف عليه يفصل بين الحضارات والقارات وربما حال بين الأحبة وحرمهم اللقاء والحب، بل هو أداة حوار بين الحضارات ومصدر لما يعرف عند سكانه بالتضامن التاريخي[20] للمتوسط بين ضفتيه الشمالية والجنوبية: بين أوروبا وإفريقيا، هكذا بدا نص "طريقي إلى الحرية" يعج بكل الأجناس المجاورة. إذ هناك المرأة التونسية ذات الأصل المالطي والأب الإيطالي اللذان لهما أرض تنتج عنبا ذات لون بهيج ومذاق رائع، والسيدة الإيطالية المعروفة بـ"مدام ماري" التي كانت تمتلك حانة في الميناء، يتردد عليها أغلب

[19] طريقي إلى الحرية، ص 109.
[20] للتعمق في فكرة التضامن التاريخي للمتوسط ينظر: محمد أركون : من أجل عقل تهديمي: ما وراء الحوار والبحث عن الهويات، تعريب مختار الفجاري، مجلة حكمة الالكترونية، 2019، https://hekmah.org/%D8%B9%D9%82%D9%84-%D8%AA%D9%87%D8%AF%D9%8A%D9%85%D9%8A/

الإصدار الخامس - العدد واحد وخمسون
تاريخ الإصدار: 2 – كانون الثاني – 2023م
www.ajsp.net
ISSN: 2663-5798

البحارة، وابنتيها كانتا مختلفتين اختلافا كبيرا بنية وسلوكا، إحداهما قصيرة القامة، بدينة في غير ترهل، بشوشة مقبلة على الناس، تحب الأطفال وتأخذ بأيدي ضعاف الحال، وثانيتهما نحيفة فائقة الجمال لا تكلم أحدا ولا ترغب في أن يكلمها الناس.

جنسيات متعددة تقطن قليبية من "مالطة المجاورة" كما يسميها ومن إيطاليا التي تبدو للحديد النظر عبر البحر بأضوائها المتلألئة فكأن قليبية مجمع الحضارات وملتقاها وإذا بالبحر واصل غير فاصل. فالإيطاليون في طريقي إلى الحرية كثيرون والإيطاليات المتزوجات من أبناء البلدة كثيرات، وذلك ربما بسب اقتراب قليبية من البحر أو ربما بسبب الحرب العالمية الثانية حيث تم دحر الإيطاليين النهائي في هذه البلدة بالذات لاسيما وقد اختفت أسماؤهم وأسماؤهن "وراء أسماء عربية ولم يكن حملهن الجنسية الفرنسية في وقت كان البلد فيه مستعمرا مدعاة إلى توتر العلاقات أو القطيعة بينهم وبين أهل البلدة، وقد أبى كثير منهم بمجيء الاستقلال مغادرة البلدة وعقبهم فيها إلى يوم الناس هذا." [21] .

هذه هي الأبعاد الرمزية لكلمة بحر في سيرة صمود الفكرية وقد جعل من الكلمة عماد هندسته الدلالية ولكن هل نجح صمود ي اجتذاب السيرة الواقعية نحو المدرسة الرمزية كما أراد لها؟ بالنظر في هذه الرمزية نجده قد حاول، على طريقة نجيب محفوظ في الشحاذ، الملاءمة والتوفيق بين المدرسة الواقعية التي يفرض جنس السيرة الفكرية الانتماء إليها وبين المدرسة الرمزية التي يميل إليها صمود الناقد والأستاذ الباحث والمدرّس، ولكنه . كنجيب محفوظ تماما . آل إلى الفشل لأن طبيعة الجنس الأدبي هي التي تغلب رغبة الكاتب ونزوعه إلى التجريب والصناعة. وإذا فشل نجيب محفوظ بسبب سيطرة الواقعية على رؤيته الروائية، فإن صمود فشل لأن ما ينقله واقع عيني موجود فعلا في المكان والزمان المحددين. ولما كانت شروط الرمزية هي الدخول في عالم الإنسان المطلق خارج حدود الزمان والمكان المحددين فإن كل محاولة لجعل السيرة الفكرية منتمية للمدرسة الرمزية هي محاولة آيلة للفشل، وليس لها إلا البقاء ضمن رمزية أسلوبية وبلاغية لا تتجاوز القيام بتحويلات سيميائية للكلمات والتنقل بها عبر سجل من الرموز والدلالات. وبذلك تبقى الأدبية بتعبير رولان بارت السابق لا تتجاوز الدرجة الصفر من الكلام إلا بمقدار ضئيل.

وقد حدد بعض النقاد معيارا للرمزية يتمثل في أن النص الرمزي هو ذاك النص الذي يصعب تحديد انتمائه الزماني والمكاني وأنه نص يعبر عن تجارب إنسانية مشتركة في كل العصور وكل الأماكن[22] وهذا مثال رواية السد لمحمود المسعدي حيث نجد غيلان وزوجته

[21] طريقي إلى الحرية، ص 38.

[22] الحفناوي الماجري: المسعدي من الثورة إلى الهزيمة، دار الجنوب، تونس، 1981، ص20.

يسافران على بغل ويقطعان الفيافي والصحاري حتى إذا ما أطلا على واد يغور ماؤه في الرمال ويمر بين جبلين، قررا بناء سد ليخصب الماء الأرض وتتحول صحراؤها إلى حدائق غناء. لا شيء في كتاب المسعدي هذا يدل على زمن بعينه أو مكان معروف بعينه من مدن أو أقاليم محددة بالجغرافيا، وإنما هو المكان المطلق والزمان المطلق. والرمزية موغلة في الغموض وهو ما يفتح الباب أما القراءات المخصبة والتأويلات المتعددة اللانهائية، هكذا مثلا ذهب الحفناوي الماجري إلى أن روايات المسعدي الغامضة والموغلة في الرمزية إلى حدود السريالية ترمز للاستعمار الفرنسي وما بناء السد إلا استنهاض لهمم الشعب التونسي في كسب الإرادة والتصدي للاحتلال. وفي الاتجاه نفسه كتب توفيق الحكيم المسرح الذهني لاسيما في بجماليون وأوديب إذ مثل إعادة إخراج الأسطورة إخراجا عربيا يتنزلها ضمن صميم المدرسة الرمزية حيث الدلالة الإنسانية المطلقة على حدود الإرادة الإنسانية وابعادها.

وهكذا، لم يصل صمود إلى رمزية محمود المسعدي في السد ولم يصل إلى رمزية توفيق الحكيم في مسرحه الذهني لأن هؤلاء فهموا حقيقة المدرسة الرمزية وعملوا على تحقيق شروط الانتماء إليها بشكل كامل تقريبا في حين حاول صمود لكن تصدت له طبيعة الجنس الأدبي الذي اختار أن يكتب فيه. لكن يبقى نص صمود الأدبي نصا جميلا بلغت أدبيته مرتبة راقية.

قائمة المصادر والمراجع:

توفيق بكار من كتابه "قصصيات عربية"، ج1، دار الجنوب للنشر، تونس، 2020.

الحفناوي الماجري: المسعدي من الثورة إلى الهزيمة، دار الجنوب، تونس، 1981،

حمادي صمود: طريقي إلى الحرية، ط1، دار محمد علي الحامي لنشر، صفاقص، تونس، 2017.

رولان بارت: "الدرجة الصفر من الكتابة"، تعريب محمد نديم خفشة، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 2002.

رولان بارت، مبادئ في علم الأدلة،، تعريب محمد البكري، دار الحوار للنشرو التوزيع، اللاذقية، سوريا، 1987.

فريدريك إنجلز : " أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة" (The Origin of the Family, Private Property and the State)، 1884

فيرونيك بارونتوي: تحليل النصوص الأدبية بالاستعانة بالحاسوب، نسخة الكترونية،

https://cursus.ebsi.umontreal.ca/vol4no1/parenteau.htm

محمد أركون : من أجل عقل تهديمي: ما وراء الحوار والبحث عن الهويات، تعريب مختار الفجاري، مجلة حكمة الالكترونية، 2019،

https://hekmah.org/%D8%B9%D9%82%D9%84-

/%D8%AA%D9%87%D8%AF%D9%8A%D9%85%D9%8A

لويس إتش مورغان: المجتمع القديم (Ancient Society)، مرغان، 1877.